كلمة
الأستاذ الدكتور مسعود بوبو

سيداتي وسادتي.

بعد حمد الله والصلاة على نبيّه المصطفى، أبتدر كلمتي هذه برفع أسمى آيات الشكر والامتنان إلى أساتذتي وإخواني الأكارم في مجمعنا العريق لتفضّلهم بانتخابي عضواً عاملاً فيه يتشرّف بصحبتهم.

وإنني لأقدِّر لهم جميعاً هذه الثقة التي منحوني تقديراً ينطوي على أصدق مشاعر الاعتزاز والعرفان بالجميل، واعداً ببذل كل ما في طوقي للمشاركة في تحقيق ماعقدوا العزم على تحقيقه من أهداف ومقاصد، وعداً مفعولاً بعون الله.

وبعد، فقد تعاقب على رحاب مجمع اللغة العربية بدمشق نخبة من العلماء الخالدين الذين نذروا أنفسهم لخدمة العربية وصون تراثها القومي الأصيل؛ كان لي شرف التلمذة لثلاثة منهم، وهم: الأستاذ عبد الهادي هاشم، والأستاذ أحمد راتب النفّاخ، طيّب الله ثراهما وأكرم مثواهما، والأستاذ الدكتور إحسان النصّ، أمدّ الله في عمره.

وقد ارتأى مجمعنا العامر أن أتحدَّث في هذا المحفِل عن أستاذي الراحل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أحمد راتب النفاخ، وهو تكليف ليس من اليسير إيفاؤه حقَّه، وتشريف صعب المرتقى طالما شعرت بهمٍّ يتصعّدني كلما نويت الشروع فيه، « وقد يختلج من الجريء جَنَانه».

ولثقتي في أن الحُضّار يعرفون السيرة الذاتية لهذا الرجل العظيم سألخص الحديث هنا فأقول:

ولد فقيد مجمعنا، رحمه الله، عام ١٩٢٧م في أسرة عربية صريحة النِّجار، وبدأ بتلقي العلم في « كتّاب » قرب مسجد الشيخ محيي الدين بن عربي وهو في نحو الخامسة من عمره، وتابع تعليمه في مدرسة «الصاحبة » الابتدائية، ثم في ثانوية «جودة الهاشمي ». بعدها انتقل إلى الجامعة السورية (جامعة دمشق اليوم)، وتخرَّج في كلية الآداب عام ١٩٥٠م، ونال بعد عام شهادةَ أهلية التعليم الثانوي، وعيِّن مدرّساً للعربية في المدارس الثانوية بحوران وهو في الثالثة والعشرين من عمره. وكان مثالاً للاجتهاد والتفوّق في مراحل دراسته كلها، كما كان محل تقدير أساتذته وأقرانه خلقاً وعلماً وسلوكاً.

وفي عام ١٩٥٣م عيِّن معيداً في كلية الآداب بجامعة دمشق، ثم أوفد إلى جامعة القاهرة حيث نال درجة الماجستير عام ١٩٥٨م عن رسالته التي كان موضوعها: دراسة حياة الشاعر ابن الدمينة وشعرِه وعصره، وتحقيقَ ديوانه. ثم سجّل موضوعاً للدكتوراه في القراءات، ومع أنه أعدَّ من هذا البحث ما يكفي لنيل تلك الدرجةِ العليمة، كما شهد المشرف عليه، فلم يقبل بما كان قد أعدّ، وإنّما طمحت نفسه إلى المزيد من التعمّق والاستقصاء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

في هذا الميدان شأنَ ذوي النفوس الكبيرة التي تستصغر مادون الكمال. ويستوقفني في هذا الموضوع عبارةٌ له لن أنساها ماحييت، فبعد حديث طويل عن القراءات سألته إن كان غير راضٍ عما كتبه، ثم قلت مازحاً: لعلك تريد أن تستشير بعض مَنْ حولَنا في ما لم ينجل لك أمره من أسرار القراءات كما تفعل في التحقيق؟ فاحتدَّ قائلاً: «أمّا العربية والإسلاميات فما أظنّ أنّ أحداً يقوى عليهما مثلي في هذا البلد، ولكن ..» ثم أمسك عن الكلام. تأمّلته مليّاً، فبدا لي، رحمه الله، موزّعاً بين عزة المعرفة، ونبل التواضع، وأضاف في هدوء: «لم أقل مثل هذا الكلام لغيرك».

في الجامعة شغله أمران: متابعة الغوص على لآلئ العربية وتقصّي خصائصِها وأسرارها أوّلاً، ثمّ إيصالُ ما ثقِفه إلى طلابه ثانياً. وقد درّس على مدى سبعة عشر عاماً مقرّراتِ النحو والبلاغة والأدب والعروض واللغة والقراءات والمكتبة العربية والكتاب القديم والنصوص اللغوية لطلاب دبلوم الدراسات العليا، إلى جانب ذلك كان يقدِّم لطلابه حشداً من الفوائد العلمية والنُّصح والإرشاد في المنهج والتحقيق واقتراح الموضوعات لرسائلِ الماجستير والدكتوراه ومخططاتِها، ومراجعةِ بعض ماكتبوا أو حققوا.

لقد كان له سابغ الفضل في غرس حب العربية وإعلاء شأنها في نفوس أجيالٍ ممن تلمذوا عنده، أو اختلفوا مثلي إلى منزله في حي الشيخ محيي الدين بدمشق. ومع الإفاءة إلى ظلال هذه البركة من الحديث ينشعب بي الترجيع فأعيد السواد على ماكاد يمّحي، وعلى مهابة أنعطف في مسالك العلاقات الإنسانية والعلمية، وما فيه مقادير من الأمانة والذكرى.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أتذكّر، في مرّات معدودة اصطحبني إلى منزله وأنا طالب في الجامعة بعض من كان لهم شرف مجالسته. في تلك اللقاءات كنت أُنصت إلى حديثه مأخوذاً بفصاحته المستعذبة وسعة معرفته وقوة حافظته. كان، رحمه الله، أروى من عرفتُ للشعر والحديث الشريف وحِكَم العرب وأقوالهم. أما القرآن الكريم فقد كان في صدره كنبضان القلب. وتقوّت صلتي بأستاذي حين عُيِّنتُ معيداً في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة دمشق عام ١٩٦٩م، ومنذ ذلك التاريخ صرت ألازمه في مكتبه بالجامعة، وأختلف إلى منزله ماسمحت الأحوال بذلك. كما صرت آخذ بتوجيهه وأساعده في تدريس مقرر المكتبة العربية لطلاب السنة الأولى من قسم اللغة العربية. ومما أذكره أنني في مساء صيفي صنعت الشاي لكلينا في منزله، وحين بدأت صبَّه قال لي: اسمع هذا الشعر، وقرأ:

مــالــي مــالٌ إلا درهــمْ ... أو يــزدونــي ذاك الأدهــم

فقلت: قد سمعت. قال: وما فيه؟ قلت: يبدو لي أن الصواب فيه: «أو بِرْذوني ذاك الأدهم» فقال: هو ذاك، وكيف عرفت؟ قلت: من السياق العام وبقرينة «الأدهم». طوى الكتاب الذي كان بين يديه ووضعه جانباً ثم قال: يتعجلون التحقيق بغير مادُربة أو دراية، والتحقيق يتطلب صبراً وبصراً بخصائص العربية، وأنّى لنا ذلك ؟!

ومما لا أنساه من سابغ فضله أنني هممت مرة بالاستئذان منصرفاً وكانت الساعة الحادية عشرة ليلاً، فاستبقاني متكرِّماً، وبلطف شكرته وقلت: سأدعك تستريح وأمضي للبحث عن مطيّة معاصرة تحملني إلى حي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

الميدان حيث أسكن. فقال: يا أخ مسعود، لنا بيت أرضي هنا لا يقيم فيه أحد، فهات مالديك من أمتعة وتعال اسكنه ريثما تجدُ منزلاً يوافقك، ولا نريد منك شيئاً في مقابل ذلك. وأُرتج عليّ فلم أجد ما أقول سوى تكرار الشكر والدعاء، حتى قال: والله ما أَعرِض هذا إلاّ عن رضى.

كررت شكري واعتذاري وقلت لا يحضُرني الآن سوى بيت طُفيل الغَنَوي:

هم أسكنونا في ظلال بيوتهم ظلالِ بيوتٍ أدفأت وأظلَّتِ

ألم تر كيف تصبّب وجهي عرقاً من التأثر والحرج؟ تبسم وقال: لا عليك، فالعرب تقول: إن الجياد نضّاحة بالماء.

كان بيته محجّة للزائرين ناهلي العلم من ينبوعه، وكان هو مُحْتَكَماً في المستغلق من العبارات والأقوال والأحكام، ومرشداً في تخيّر الموضوعات، ومَعْلَماً في الإحالة على المصادر والمراجع والمظانّ، كأنّ كنوز العربية كلَّها كانت مخزّنة في ذاكرته المتّقدة من طول استبحاره في علمها. وكان، رحمه الله، كأن الحياة عنده موقف أخلاقي صارم، ومن هنا جاءت قَسْوته في الحكم على من كان لهم مسلك غير أخلاقي أو غير تربوي في الجامعة، أو استبدّ بهم الجشع والنَّفْج، ولئن أشيع عنه أحياناً أنه كان شديد الوطأة على أمثال هؤلاء فقد كان يطهِّر لسانه وقلبه خمس مرات كل يوم بذكر الله والصلوات.

وكان في علمه كالغيث العذب السخيّ، يترقرق من علٍ في جداول تتوزّعها جنبات الأرض. كانت كتبه ومخطوطاته كالسبيل للشاربين، لا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

يحجز كتاباً عن طالبه، مستعيراً أو ناظراً فيه داخل المنزل. والكثير منها لم يُعَدْ إليه، وفضلا عما كان لهذه الكتب من قيمة علمية بذاتها، فقد كانت هوامشها مطرّزة بالتعليقات والتصحيحات التي كتبها بخطه الدقيق الجميل، وكانت أطواؤها مزحومة بالجُزازات والأوراق التي قُيِّدت فيها تصويبات واستدراكات على قدر كبير من الخطورة والأهمية، وكانت معروضة مبذولة لمن يطلُبها. وطالما ألححت عليه، رحمه الله، في تحريرها وصوغها بحوثاً ينتفع بها قرّاء العربية، ولكنّ نفسه كان بها هفوٌّ إلى القراءة غلاّب على أمر الكتابة أو مُرجئ إنفاذها. وعندما اقترّ في خَلَدي هذا الظنُّ عاودت المحاولة من وجه آخر فأبديت استعدادي غير مرّة لشرف الإسهام في إمضاء مقترحي ورجوت الأستاذ الموافقةَ على استنساخ تلك التعليقات، أو تصنيفِها، أو لمِّ شعابها، أو ضمٍّ شِرادها.. حتى قلت له بعد لأيٍ: حسناً، أستاذ راتب، لعلَّ الأسْلم المريحَ في ما نحن فيه أن تُملي عليَّ مادوّنتَ، وأنا أقوم بأمر الكتابة وفق ماتوجّهني. وكان الردُّ يكرَّر: نفعل ذلك معاً إن شاء الله.

وعندما نعرف أن « علاّمة الشام » كما سمّاه طلابه وأصدقاؤه كان يكتب للكثيرين ممن بعثوا يسألونه رأياً أو توجيهاً أو استشارةً من مختلف الأقطار العربية، ونعرف أنه صحح الكثير من الرسائل الجامعية لأساتذةٍ من قسم اللغة العربية بجامعة دمشق وغيرها، وأنه كان يتابع محاضراته ونشرَ علمه في منزله، وأنه كان يستملح أحياناً قراءة ماحلولى وعذُب من الشعر العربي لمجالسيه .. عند ذاك نتفهّم مسألة إقلاله من التأليف بالقياس على ماعرفنا من سعة علمه وتنوّعه وغزارته. ينضاف إلى ذلك أن مجمع اللغة العربيّة العامرَ بدمشق اختاره عضواً عاملاً فيه عام ١٩٧٦م. فاستنفد هذا منه جَهداً ووقتاً

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

طويلين في لجنة الأصول وعضوية المجلة والمطبوعات، وازداد هذا الجَهد بعد تسميته رئيساً للمقرِّرين في المجمع، في الأعوام من ١٩٧٩ - ١٩٩٢م.

يقول أستاذنا الدكتور شاكر الفحام رئيس مجمعنا الموقّر: « كان الأستاذ راتب رئيسَ لجنة الأصول، وكان عضواً في لجنة المجلة والمطبوعات، فكان ينفق الساعات الطوال في النظر في مقالات المجلة وتصحيح مازاغ عن الصواب. فإذا ما انتهى من عمله المجمعي انقلب إلى منزله ليستأنف العمل والقراءة وليَسْتقبل الطلاب والمريدين والعلماء من أصدقائه ».

ومع كل هذا الجُهد والتنوُّع في النشاط العلمي الحميد ترك لنا الأستاذ النفاخ، رحمه الله، من الأعمال العلمية القيّمة مانعتزّ به ونعاود النَّهل من مشاربه، ومن أهم ما أنجزه:

١ً - تحقيق كتاب « القوافي » للأخفش الأوسط أبي الحسن سعيد بن مسعدة (ت ٢١٥ هـ)، صاحب سيبويه. ولهذا الكتاب قيمة عظيمة لأنه من الكتب القليلة المبكرة التي أُلِّفت في هذا الباب من علوم العربية. وصدر الكتاب عن دار الأمانة ببيروت عام ١٩٧٤م.

٢ً - شرح مايقع فيه التصحيف والتحريف لأبي أحمد الحسن بن عبد الله العسكري، الجزء الأول. قام بمراجعة تحقيقه، و صدر عن مجمع اللغة العربية بدمشق عام ١٩٨١م.

٣ً - ديوان ابن الدمينة، صنعة أبي العباس ثعلب، ومحمد بن حبيب. تحقيق صدر عن دار العروبة بالقاهرة عام ١٩٥٩م.

٤ً - فهرس شواهد سيبويه. وصدر عن دار الإرشاد ببيروت عام

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

١٩٧٠م.

٥ً ـ مختارات من الشعر الجاهلي: اختارها وعلّق عليها، صَدَرَ الكتاب عن دار الفتح بدمشق عام ١٩٦٦م، وقد دَرَسْنا هذا الكتاب على يدي أستاذنا، رحمه الله، عَام ١٩٦٤م في قصائد متفرّقة مُنتقاة قبل أن تُنْسَق في كتاب مطبوع.

٦ً ـ النصوص الأدبية: (منهاج شهادة الثقافة العامة في كلية الاداب)، بإشراف أحمد راتب النفاخ، مطبعة الجامعة السورية عام ١٩٥٥م .

وقد بلغ عدد المقالات التي نشرها أستاذنا المكرَّمُ الذكر ست عشرة مقالة كما أوردها أستاذنا الدكتور شاكر الفحام في اللَّحَق الذي ذيّل به كلمة التأبين، في الحفل الذي أقامه المجمع لفقيده الأستاذ النفاخ مساء الثامن من نيسان عام ١٩٩٢م في قاعة المحاضرات بمكتبة الأسد الوطنية بدمشق.

وبعد ، فإنّ المجامع اللغوية، والمؤسسات العلمية، والإنجازات الحضارية تبقى من صنع الرجال، والحديث عن أمثال هؤلاء الرجال يظلّ وجيهاً وسامياً ولو اختلفت جهات القول، وقد كان حديثي قبسة العجلان عن رجل من العلماء الأثبات في هذه الأمة جعل همّه خدمة العربية وصيانتَها لتبقى كنهر دائم الجريان، وكشجر دائم الخضرة، ولتستمرَّ حافظة حاضر الأمة العربية وماضيها، معبِّرة عن عقول أبنائها في الفكروالأدب والفنون.

لقد علمني أستاذي النفّاخ حبَّ العربية، ومَن أحبّ العربية مخلصاً لا معدى له عن تعلُّم الصبر، وعندما يتعلّم المرء الصبر على البحث والتنقير عن كنوز تراثنا الثمين يجد النعيم الروحي في هذا العالم. ومن أحب العربية امتلأ قلبه وعقله بحب القومية العربية، ويَقِن صدرُه بالإيمان القرير.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وكنت كلما جلست إليه أعداني من صبره وخلقه وإيمانه بالحق في غير مُزاوغة. ومن الوفاء للرجال وللأوطان أن نحفظ الأمانة التي رغب إلينا الأستاذ النفاخ حملَها، وأن نكرِّم ذكراه بالعهد على السير في السبيل التي اختار، وأن نبقي راية العربية عالية فعل أولئك الشهداء الأبرار الذين يجودون بأرواحهم كي تبقى راية الوطن عالية خفّاقة في شمم وكبرياء.

وليطمئنّ محبّو العربية إلى أنها ستظلّ حيّة متجدّدة في صدور أبنائها، محوطةً جواهرُها بالرعاية والحماية كثمارِ الجوز التي إذا ما نالت الأحداث والمتغيّرات من قشرها الخارجي الأخضر وجدتْ خلفه غلافاً أصلب وأقوى؛ أمّا ألبابها فمصونة تحملها الأجيال إرثاً غالياً في جوارحها، فتجدّد دماءها في القلوب والعقول والأوردة، وتُبرِّئها من ظِنن الركود والخمول.

بقيت في صدري كلمة يغصّ بها الحلق منذ ثلاثة وثلاثين عاماً لم تجد إبّانها سبيلاً لبقاً للافصاح والعلن، ولعلّ هذه السانحة الطيبة في رحاب هذا الصرح العلمي خيرُ المواتاة لقولها، إنّها كلمة شكر ضافٍ لذلك الرجل الكبير الذي كان له ومنه عميم الفضل في متابعتي تحصيلي العلمي بما قدّمه لي من عون ورعاية وتشجيع يوم كنت رئيس قلم عنده، وكان هو، حفظه الله، برتبة الرائد الجوي، إنه السيد الرئيس حافظ الأسد. فله من قلبي أحرّ وأعمق المكنون المصفّى. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net